الباب الثالث:

السلوك في طريق التصوف

١- البحث عن العالم المربي، والمرشد المزكي والانتساب إليه ومصاحبته والالتزام بإرشاداته وتوجيهاته.

٢- مصاحبة عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين.

٣- أداء الفرائض بكمالها والتقرب إلى الله بنوافلها.

٤- الإكثار من ذكر الله في كل الأحوال مع الصلاة على النبي ﷺ.

٥- السعي على سلامة القلب وصلاحه

٦- التزام المقامات والأحوال التي تُبَلِّغُهُ الطريق وتدله عليه.

السلوك في طريق التصوف

- يقول الإمام القشيري تحت عنوان الشريعة والحقيقة: (الشريعة أمر بالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية[1]، وكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فأمرها غير مقبول، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فأمرها غير محصول.

والشريعة جاءت بتكليف من الخالق، والحقيقة أنباء عن تصريف الحق، فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده، والشريعة قيام بما أمر، والحقيقة شهود لما قضى وقدر، وأخفى وأظهر.

سمعت أبا علي الدقاق[2] رحمه الله يقول: (إياك نعبد) حفظ للشريعة، و(إياك نستعين) إقرار بالحقيقة.

واعلم أن الشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره، والحقيقة أيضاً شريعة من حيث إنّ المعارف[3] به سبحانه أيضاً وجبت بأمره)[4].

- فبعد الأبحاث النظرية عن علم التصوف وما يتعلق به، كان لابد من دراسة حقائق التصوف؟ وكيف يمكن سلوك طريقه؟ وهذا أهم شيء يجب أن يبحث عنه من أراد التعرف حقاً على طريق أهل التصوف الذين هم أهل الله ﷻ وخاصته، وأهل الصفاء والنقاء، وأهل الولاية والعرفان، وأهل التقى

---

(١) مشاهدة الربوبية: أي رؤيتها بالقلب، ويعبر عن ذلك بأن الشريعة معرفة السلوك إلى الله تعالى، والحقيقة دوام النظر إليه، والطريقة سلوك طريق الشريعة أي العمل بمقتضاها.

(٢) أبو علي الدقاق: هو الحسن بن علي بن محمد الدقاق، النيسابوري الشافعي صوفي، فقيه، أصولي. توفي سنة (٤٠٥ هـ/ ١٠١٥ م). [الأعلام للزركلي]

(٣) إن المعارف: أي معرفة العارفين النفس.

(٤) القشيري: الرسالة القشيرية، ص٨٢..

والنقاء، أحباب الله والدعاة إليه، وأهل الإخلاص والصدق مع الله، وأهل القرب والاستقامة.

فمن أراد أن يسلك مسلكهم، وأن يتتبع خطاهم وجب عليه أن يسعى للسير في خمسة مطالب:

المطلب الأول: البحث عن العالم المربي، والمرشد المزكي والانتساب إليه ومصاحبته والالتزام بإرشاداته وتوجيهاته.

المطلب الثاني: مصاحبة عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين.

المطلب الثالث: أداء الفرائض بكمالها والتقرب إلى الله بنوافلها.

المطلب الرابع: الإكثار من ذكر الله في كل أحواله مع الصلاة على النبي ﷺ.

المطلب الخامس: السعي إلى سلامة القلب وصلاحه.

المطلب السادس: التزام المقامات والأحوال التي تُبَلِّغه الطريق وتدله عليه.

المطلب الأول

البحث عن العالم المربي، والمرشد المزكي والانتساب إليه ومصاحبته والالتزام بإرشاداته وتوجيهاته.

- إن أول طريق التصوف لمن أراد أن يسلكه أن يبحث عن شيخ مربٍ يلتزمه حتى يشرف على تربيته، ويوجهه إلى الطريق المستقيم، وهذا لابد منه لكل سالك أي طريق في هذه الحياة، فمن أراد أن يكون نجاراً لابد أن يكون له معلم، وكذلك مَنْ أراد أن يكون حداداً أو طالباً أي صنعة أخرى فلابد أن يكون له معلم وكذلك من أراد أن يتعلم أي علم فلابدّ أن يكون له معلم، فمن أراد أن يتقن علم الطب أو الهندسة أو غير ذلك فلابدّ من معلم وأستاذ يتقن هذا العلم أو ذاك، وكل مطلب في هذه الحياة لابد لمن أراد أن يسلك مسلكه ممن يدله على الطريق ويرشده إلى الصواب، وهذا أمر بديهي، فكيف بمن أراد أن يسلك طريق الله ﷻ طريق الصلاح والفلاح، طريق الحياة والنجاح، وهو أعظم طريق وأشرفه، فلابد لسالكه من مرشد ومربٍ وعارف بالله يدله على الطريق، ويساعده على سلوكه، يشير سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾[1] هذه الآية تشير إلى أن الإيمان لابد له ممن يدعو إليه حتى يؤمن الناس، أي لابد من مربٍ ومرشد ومعلم يوضح للناس الطريق نحو الإيمان بالله ويعلمهم كل ما يتعلق بهذا الطريق حتى يبلغوا حقيقة هذا الطريق علماً وفهماً وتطبيقاً وسلوكاً.

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٣.

- ولهذا اختار الله ﷻ النبي محمداً ﷺ ليكون نبي هذه الأمة فوجهه وعلمه وأدبه بواسطة الوحي عن طريق جبريل.

- ولقد كان النبي ﷺ المرشد والمربي والموجه للصحابة الكرام.

- وكذلك كان كل صحابي أستاذاً ومربياً للتابعين، وكان التابعون أساتذة لمن تبعهم وهكذا انتقلت العلوم إلينا بفضل العلماء، الذين حملوه إلينا، قال رسول الله ﷺ: «وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[1].

- وهذه سنة من سنن الله في خلقه، فقد قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[2].

فدلت هذه الآية على أن قضية المعلم الهادي والدليل المرشد ضرورية لزومية طبعاً وشرعاً، ومن هنا أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين وهادين ومعلمين ومرشدين، ومن هنا جاء أمر الله باتخاذ القدوة الصالحة فقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[3].

- فكان النبي ﷺ المربي الأول للمؤمنين كلفه الله ﷻ بهذه المهمة فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[4].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه عن أبي الدرداء ﷺ.

(٢) سورة الرعد: ٧.

(٣) سورة الأحزاب: ٢١.

(٤) سورة آل عمران: ١٦٤.

- وعندما ذكر الله أنماطاً من أهل القدوة الصالحة الداعية إليه تعالى، قال لرسوله: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾[1].

- من هنا نرى أن اتخاذ الشيخ العالم المربي واجب لأنّ ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب وهو ثابتٌ كما رأيت عقلاً وطبعاً وشرعاً مؤيّدٌ بالواقع العلمي والعملي والتاريخي، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى أهمية القدوة والمرشد بآيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2].

- وقوله ﷻ: ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[3].

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾[4].

- إن المناهج التربوية جميعاً، وفي كل مجالات التربية والتعليم تحتم وجود معلم ومتعلم فكيف بمن أراد أن يسلك طريق معرفة الله تعالى والوصول إليه، وهو غاية وجود الإنسان في هذه الدنيا التي حدّدها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[5].

قال مجاهد ﷺ: إلا ليعرفوني[6].

- ومعرفة أي شيء لابد لها من معرِّفٍ، فكيف بمعرفة الله ﷻ.

---

(١) سورة الأنعام: ٩٠.

(٢) سورة الأنبياء: ٧.

(٣) سورة لقمان: ١٥.

(٤) سورة الفرقان: ٥٩.

(٥) سورة الذاريات: ٥٦.

(٦) تفسير القرطبي.

- قال الشيخ أبو حامد الغزالي: (يحتاج المريد إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة، فمن سَلك سُلك البوادي المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها، فإنها تجف على القرب، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر، فمعتصم المريد شيخه فليتمسك به)[1].

- وقال أيضاً مؤكداً على اتباع المرشد: (فما يجب في حق سالك طريق الحق أن يكون له مرشد ومربٍ ليدله على الطريق، ويرفع عنه الأخلاق المذمومة، ويضع مكانها الأخلاق المحمودة، ومعنى التربية أن يكون المربي كالزارع الذي يربي الزرع، فكلما رأى حجراً أو نباتاً مضراً بالزرع قلعه وطرحه خارجاً، ويسقي الزرع مراراً إلى أن ينمو ويتربى، ليكون أحسن من غيره، وإذا علمت أن الزرع محتاج للمربي علمت أنه لابد للسالك من مرشد البتة لأن الله تعالى أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام للخلق ليكونوا أدلاء لهم ويرشدوهم إلى الطريق المستقيم، وقبل انتقال المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى الدار الآخرة قد جعل الخلفاء الراشدين نواباً عنه ليدلوا الخلق إلى طريق الله، وهكذا إلى يوم القيامة، فالسالك لا يستغني عن المرشد البتة)[2].

- وقال الإمام ابن عطاء الله السكندري: (وينبغي لمن عزم على الاسترشاد وسلوك طريق الرشاد أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق سالكاً للطريق، تاركاً لهواه، راسخ القدم في خدمة مولاه، فإذا وجده فليمتثل ما

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين جـ٣ ص٦٥.

(٢) أبو حامد الغزالي: خلاصة التصانيف في التصوف ص١٨.

أمر، ولينتهِ عما نهى عنه وزجر)[1].

– فلابد إذا للمسلم الذي يريد أن يسلك طريق التصوف، طريق معرفة الله ﷻ من أن يبحث عن هذا العالم الذي من أهم شروطه أن يكون عالماً بكتاب الله وسنة رسوله وبعلوم الشريعة وآدابها، وعلوم السلوك ومدارجه، وينبغي أن يكون موصوفاً بصفات أهل العلم الصادقين والمُخلِصين والمخلَصين، والأتقياء الورعين، والأولياء المقربين.

– وقد تحدث الشيخ الأكبر ابن عربي قدس الله سره عن هؤلاء المربين فقال: (الشيوخ نواب الحق في العالم كالرسل عليهم الصلاة والسلام بزمانهم، بل هم الورثة الذين ورثوا علم الشرائع عن الأنبياء عليهم السلام غير أنهم لا يشرعون فلهم رضي الله عنهم حفظ الشريعة في العموم وليس لهم التشريع، ولهم حفظ القلوب، ومراعاة الآداب في الخصوص، وهم من العلماء بالله بمنـــزلة الطبيب.

والشيوخ هم العارفون بالكتاب والسنة، قائلون بها في ظواهرهم، متحققون بها في سرائرهم، راعون حدود الله تعالى، ويوفون بعهد الله ﷻ، قائمون بمراسم الشريعة لا يتأولون في الورع، آخذون بالاحتياط، مجانبون لأهل التخليط، مشفقون على الأمة، لا يمقتون أحداً من العصاة، يحبون ما أحب الله، ويبغضون ما أبغض الله، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر المجمع عليه، يسارعون في الخيرات، ويعفون عن الناس، ويوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، يميطون الأذى عن الطريق، طريق الله وطريق الناس، يؤدون حقوق الناس يبرون عباد الله، هينون لينون، رحماء بين خلق الله)[2].

---

(١) تاج الدين بن عطاء الله السكندري: مفتاح الفلاح في ذكر الكريم الفتاح ص٣٠.

(٢) أبو سعيد التونسي: حقيقة الصوفية ص٢٩.

– وقد يسأل سائل كيف الوصول إلى هذا العارف بالله والهادي إليه؟ وكيف الاهتداء إليه والوصول إلى معرفته؟ وما هي شروطه وأوصافه؟

– إن أفضل من أجاب على هذا السؤال فضيلة الشيخ عبد القادر عيسى رحمه الله فقال [1]: (حين يشعر الطالب بحاجته إليه كشعور المريض بحاجته إلى الطبيب، عليه أن يصدق العزم، ويصحح النية، ويتجه إلى الله تعالى بقلب ضارع منكسر، يناديه في جوف الليل، ويدعوه في سجوده وأعقاب صلاته: اللهم دلني على من يدلني عليك، وأوصلني إلى من يوصلني إليك.

– وعليه أن يبحث في بلده، ويفتش ويسأل عن المرشد بدقة وانتباه غير ملتفت لما يشيعه بعضهم من فقد المرشد المربي في هذا الزمان.

– فإذا لم يجد أحداً في مدينته فليبحث عنه في مدن أخرى، ألا ترى المريض يسافر إلى بلدة ثانية للتداوي إذا لم يجد الطبيب المختص، أو حين يعجز أطباء مدينته عن تشخيص دائه، ومعرفة دوائه.

– ومداواة الأرواح تحتاج إلى أطباء أمهر من أطباء الأجسام.

وللمرشد شروط لابد منها حتى يتأهل لإرشاد الناس وهي أربعة:

١– أن يكون عالماً بالفرائض العينية.

٢– أن يكون عارفاً بالله تعالى.

٣– أن يكون خبيراً بطرائق تزكية النفوس، ووسائل تربيتها.

٤– أن يكون مأذوناً بالإرشاد من شيخه.

١– أما الشرط الأول فينبغي أن يكون المرشد عالماً بالفرائض العينية: كأحكام الصلاة والصوم والزكاة، وأحكام المعاملات والبيوع ...الخ،

---

(١) عبد القادر عيسى: حقائق عن التصوف ص٦٨ وما بعدها.

وأن يكون عالماً بعقيدة أهل السنة والجماعة بالتوحيد.

٢- وأما الشرط الثاني فينبغي أن يتحقق المرشد بعقيدة أهل السنة عملاً وذوقاً بعد أن عرفها علماً ودراية، فيشهد في قلبه وروحه صحتها، ويشهد أن الله تعالى واحدٌ في ذاته، واحدٌ في أفعاله، ويتعرف على أسماء الله تعالى ذوقاً وشهوداً.

٣- وأما الشرط الثالث فلابد أن يكون قد زكى نفسه على يد مربٍ ومرشد فخبَرَ مراتب النفس وأمراضها ووساوسها، وعرف أساليب الشيطان ومداخله وآفات كل مرحلة من مراحل السير، وطرائق معالجة كل ذلك بما يلائم حالة كل شخص وأوضاعه.

٤- وأما الشرط الرابع فلابد للمرشد أن يكون قد أجيز من شيخه بهذه التربية وهذا السير، فمن لم يشهد له الاختصاصيون بعلم يدعيه، لا يحق له أن يتصدر فيه....

- قال ابن سيرين رحمه الله: ﴿إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ﴾[1].

- وقد أوصى رسول الله ﷺ ابن عمر رضي الله عنهما بذلك فقال: «يا ابن عمر لا يغرنَّك ما سبق لأبويك من قبلي فإن العبد لو جاء يوم القيامة بالحسنات كأمثال الجبال الرواسي ظن أنه لا ينجو من أهوال ذلك اليوم يا ابن عمر دينك دينك إنما هو لحمك ودمك فانظر عمن تأخذ خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا»[2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٢) أخرجه ابن عدي عن ابن عمر رضي الله عنهما.

- ثم اعلم أن من علامات المرشد أموراً يمكن ملاحظتها:

● **منها**: أنك إذا جالسته تشعر بنفحة إيمانية، ونشوة روحية، لا يتكلم إلا بالله، ولا ينطق إلا بخير، ولا يتحدث إلا بموعظة أو نصيحة، تستفيد من صحبته كما تستفيد من كلامه، تنتفع من قربه كما تنتفع من بعده، تستفيد من لحظه كما تستفيد من لفظه.

● **ومنها**: أن تلاحظ في إخوانه ومريديه صور الإيمان والإخلاص، والتقوى والتواضع، وتتذكر وأنت تخالطهم المثل العليا من الحب، والصدق والإيثار، والأخوّة الخالصة، وهكذا يعرف الطبيب الماهر بآثاره ونتائج جهوده، حيث ترى المرضى الذين شفوا بإذن الله على يديه، وتخرجوا من مصحه بأوفر قوة، وأتم عافية.

علماً أن كثرة المريدين والتلاميذ وقلتهم ليس مقياساً وحيداً، وإنما العبرة بصلاح هؤلاء المريدين وتقواهم، وتخلصهم من العيوب والأمراض واستقامتهم على شرع الله تعالى.

● **ومنها**: أنك ترى تلامذته يمثلون مختلف طبقات الأمة، وهكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ فالظفر به يدفع الطالب للتمسك به، والتزام مجالسه، والتأدب معه، والعمل بنصحه وإرشاده في سبيل الفوز بسعادة الدارين)[1].

- وفي هذا الموضوع للنبي ﷺ توجيه عظيم، فقد سئل النبي ﷺ فقيلَ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَيُّ جُلَسَائِنَا خَيْرٌ؟ قَالَ: «مَنْ ذَكَّرَكُمُ اللَّهَ رُؤْيَتُهُ، وَزَادَ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ، وَذَكَّرَكُمْ بِالآخِرَةِ عَمَلُهُ»[2].

---

(١) عبد القادر عيسى: حقائق عن التصوف: ص٦٨ وما بعدها.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما.

المطلب الثاني

مصاحبة عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين

- لابد لمن أراد أن يسلك طريق التصوف من الصحبة، والمقصود بالصحبة البحث عن الأصحاب الذين يسلكون هذا الطريق، ويسيرون مع المربي بصدق وإخلاص، ليصحبهم وينتفع بصحبتهم، فيتعلم منهم ما ينقصه من أمور الدين والدنيا، ويمارس معهم ما تعلمه، ويرى فيهم النموذج الحي لما يتعلمه، ينصحونه تارة، ويبادلونه عواطفه وحياته تارة أخرى، ويشاركونه في فرحه ومسراته، وفي آلامه وامتحاناته.

- وللصحبة أثر كبير في التربية والتزكية، لذلك أمر الله ﷻ المؤمنين بمصاحبة الصالحين.

- فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾[1].

- بل أمر الله ﷻ أن يصبر المؤمن نفسه مع الأصحاب، وألا يبتعد عنهم أو يزهد فيهم، كما أمر سبحانه بالابتعاد عن أصحاب السوء: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[2].

---

(١) سورة التوبة: ١١٩.

(٢) سورة الكهف: ٢٨.

- وبين الله ﷻ ما سيؤول إليه الأمر يوم القيامة لمن ابتعد عن صحبة الصالحين، وصاحب أهل السوء، فقال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

- وتحدث سبحانه عن نتائج الصحبة يوم القيامة فقال:

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[2].

كما لفت النبي ﷺ الأنظار إلى أثر الصاحب على صاحبه منبهاً إلى أهمية البحث عن الصاحب التقي فقد روى أبو هريرةﷺ أن النبي ﷺ قال: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»[3].

- وقد حذر النبي ﷺ من قرناء السوء فقال: «إياك وقرين السوء فإنك به تعرف»[4].

- قال الإمام علي ﷺ يحث على مصاحبة التقي والابتعاد عن الدنيء[5]:

وصاحب تقياً عالماً تنتفع بـــه ... فصحبة أهل الخير ترجى وتطلبُ

وإياك والفساق لا تـــصحبنهم ... فصحبتهم تعدي وذاك مجـــربُ

- وقال أيضاً كرم الله وجهه:

---

(١) سورة الفرقان:٢٧-٢٩

(٢) سورة الزخرف:٦٧

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي.

(٤) أخرجه ابن عساكر عن أنس بن مالك.

(٥) السفاريني: غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، جزء٤، ص٦٥.

واحـــذر مُؤَاخـــاة الـــدنيء فإنـــه
يعدي كما يعدي الصحيحَ الأجربُ
واختر صديقك واصـــطفيه تفـــاخرا
إن القـــرين إلى المقـــارن ينـــسب

- وقال أيضاً كرم الله وجهه منبهاً من ضرر مصاحبة الجهال[1]:

فلا تـــصحب أخـــا الجهـــلِ وإيـــــــاك وإيـــــــاهُ
فكـــم مـــن جاهـــل أردى حليمـــاً حـــين آخـــاهُ
يقـــاس المـــرء بـــالمرءِ إذا مـــا المـــرء ماشـــاهُ
وللـــشيء مـــن الـــشيء مقـــاييس وأشـــباه
وللقلـــب علـــى القلـــب دليـــلٌ حـــين يلقـــاه

- وقال عدي بن زيد متحدثاً عن طريقة انتقاء الأصحاب[2]:

إذا كنت في قوم فصاحب خيـــارهم
ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي
عن المرء لا تسأل وسل عـــن قرينـــه
فكـــل قـــرين بالمقـــارن يقتـــدي
فإن كان ذا شـــر فجانبـــه ســـرعة
وإن كان ذا خير فقاربـــه تقتـــدي

- كما ميز النبي ﷺ بين الجليس الصالح والجليس السوء وأثر كل منهما فقال ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ

(١) ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد ص١٩٧.

(٢) الماوردي: أدب الدنيا الدين ص٢٠٦.

الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»[1].

- وينبغي لسالك طريق الصوفية أن يحب أصحابه السالكين لهذا الطريق ففي محبتهم يجد حلاوة الإيمان، وقد روى أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[2].

- كما ينبغي لهذا المسلم أن يستقيم على صحبتهم وتفقد أحوالهم وزيارتهم وكل ذلك مدعاة لمحبة الله له، فقد روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ أَيْنَ تُرِيدُ قَالَ أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا قَالَ: لاَ غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ ﷻ. قَالَ فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ»[3].

- وعنه ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللَّهِ نَادَاهُ مُنَادٍ أَنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلاً»[4].

- هذا وإن أثر الصحبة الصالحة لا ينتهي في الدنيا وإنما يمتد إلى الآخرة فالمتصاحبون في الله ﷻ في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي موسى ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه.

- فقد روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّه يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ» وذكر منهم «وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْه»[1].

- وعنه أيضاً قال، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي»[2].

- وقد بين النبي ﷺ مكانة الصحبة الصادقة في الله ﷻ وهي مكانة يغبطهم عليها الأنبياء والشهداء يوم القيامة، فقد روى عمر بن الخطاب ﷺ أن النبي ﷺ قال: (« إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّه لأُنَاساً مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَة بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّه تَعَالَى».

قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّه تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ. قَالَ: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّه عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلاَ أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَ اللَّه إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ لاَ يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ». وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3])[4].

- من كل ما مر معنا سابقاً نجد أنه لابد للمسلم الذي أراد أن يسلك طريق التصوف، طريق أهل الله ﷻ، من أن يبحث عن هؤلاء الأصحاب ويصاحبهم ويسير معهم في هذا الطريق، ليكونوا له عوناً على سلوكه بصدق وإخلاص واستقامة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٣) سورة يونس:٦٢.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه.

المطلب الثالث

أداء الفرائض بكمالها والتقرب إلى الله بنوافلها

- التقرب إلى الله بأداء الفرائض بكمالها والتقرب إلى الله بنوافلها هي من أهم واجبات السالك لطريق التصوف، طريق التزكية والإحسان، وذلك تحقيقاً لما روى أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[1].

- في هذا الحديث عدة إشارات منها أن العبد إذا أدى الفرائض والنوافل بكمالها وتمامها أصبح موالياً لله وأصبح الله ولياً له يدافع عنه فإن عاداه أحد حاربه الله ومن حاربه الله قصمه.

- ومنها أن التقرب إلى الله ﷻ يكون على مقامين وكل مقام له منازل متفاوتة، ودرجات متعددة، فهناك مقام قرب الفرائض وهو المطلوب أولاً وهذا القرب أحب شيء إلى الله ﷻ وذلك بأن يؤدي العبد جميع فرائض الله تعالى عليه وما أوجبه عليه كاملة من غير نقصٍ، ويدخل في ذلك ترك جميع المحرمات.

- وهناك مقام قرب النوافل التي تؤدي إلى حب الله لمن أداها فإذا أحبه الله ﷻ ألهمه الله ألا يسمع ولا يبصر إلا ما يحبه الله ولا يستعمل يده ولا رجله إلا في طاعة الله عند ذلك ينال الإجابة عند سؤال الله ودعائه وإن استعاذ الله مما يكره أعاذه وإن أراد شيئاً حقق طلبه وأمله.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

- والفرائض كثيرةٌ ليست فقط الفرائض الخمس التي ذُكرت في حديث النبي ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»[1].

- فهذه الفرائض الخمس هي أهم الفروض الإسلامية وأوجبها وهي متعينة الأداء على كل مُكلف ويجب عند أدائها أن تؤدى بكمالها وأركانها وواجباتها وبخشوعها وما يرتبط بها من أمور متعددة كي يكون أداؤها كاملاً كما يحب الله ويرضى لذلك يجب تعلم فقهها بشكل كامل صحيح وأداؤها بشكل كامل تام، كما يجب الوصول بها إلى الغايات التي تتحقق بأدائها.

- وأول أركان الإسلام الشهادتان: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) فالنطق بالشهادتين هو أول واجب على كل مسلم مكلف، وهذه الكلمة هي عنوان الإسلام المجيد، وهي بعينها نور الإيمان وآية التوحيد، ويجب أداؤها بإخلاصها، فقد روى زيد بن أرقم قال، قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة» قيل: وما إخلاصها قال: «أن تحجزه عن محارم الله ﷻ»[2].

- وقال رسول الله ﷺ: «وقول لا إله إلا الله لا يترك ذنبا، ولا يشبهها عمل»[3].

- لذلك أمرنا النبي ﷺ أن نجدد إيماننا بالإكثار من ذكرها، فقال ﷺ: «جَدِّدُوا إِيْمَانَكُمْ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا قَالَ: «أَكْثِرُوا مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط عن زيد بن الأرقم ﷺ.

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه عن أم هانئ رضي الله عنها.

قَوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ»[1].

- ولا يدخل الجنة إلا من ملك المفتاح وقد بين النبي ﷺ حقيقة هذا المفتاح فقال: «مفْتَاحُ الْجَنَّةِ شَهَادَةُ أَنَّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ»[2].

- وقيل لوهب بن منبه[3]: (أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة ؟ قال بلى ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان[4] فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك)[5].

والركن الثاني للإسلام هي فريضة الصلاة التي يجب أن تؤدى بأركانها وشروطها ويجب المحافظة عليها في أوقاتها وخاصة مع الجماعة وألا تُؤخر أو تُهمل وأن تحقق قول الله ﷻ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾[6].

- وأن تحقق أيضاً قول النبي ﷺ: (مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللَّهِ إِلا بُعْدًا)[7].

---

(١) أخرجه أحمد عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد عن معاذ ﷺ.

(٣) وهب بن منبه: أبو عبد الله وهب بن منبه الابناوي الصنعاني، مؤرخ، كثير الأخبار عن الكتب القديمة، عالم بأساطير الأولين ولاسيما الإسرائيليات، يعد في التابعين، أصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن. ولد ومات بصنعاء سنة (١١٤هـ/٧٣٢م) وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها. [الأعلام للزركلي]

(٤) (له أسنان..) أي وأسنان هذا المفتاح فعل ما أمر الله تعالى به وترك ما نهى الله عنه.

(٥) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم بشرح خمسين حديثا من جوامع الكلم.

(٦) سورة العنكبوت: ٤٥.

(٧) أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

- وقوله ﷺ في الحديث القدسي: (قال الله تعالى ليس كل مُصَلٍّ يصلي إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي وكفَّ شهواته عن محارمي ولم يصر على معصيتي وأطعم الجائع وكسا العريان ورحم المصاب وآوى الغريب كل ذلك لي وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأُ عندي من نور الشمس على أن أجعل الجهالة له حلماً والظلمة نوراً يدعوني فأليبه ويسألني فأعطيه ويقسم عليَّ فأبُره أكلؤه بقوتي وأستحفظه ملائكتي مثله عندي كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها ولا يتغير حالها)[1].

- وكذلك القول في الصوم يجب أن يؤدى بما وجه إليه القرآن والسنة بكماله وتمامه ومقصده وغايته ليحصل المطلوب والفائدة المرجوة منه يبين ذلك قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾[2] فأهم غاية مرجوة من الصيام أن يصل الإنسان إلى كمال التقوى.

- كذلك يبين النبي ﷺذلك في قوله: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»[3].

- وقول النبي ﷺ: «لَيْسَ الصِّيَامُ مِنَ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ فَقَطْ. إِنَّمَا الصِّيَامُ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ. فَإِنْ سَابَّكَ أَحَدٌ أَوْ جَهِلَ عَلَيْكَ فَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ إِنِّي صَائِمٌ»[4].

---

(١) أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب ﷺ في جامع الأحاديث.

(٢) سورة البقرة: ١٨٣.

(٣) أخرجه البخاري عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة ﷺ.

وقوله ﷺ: «رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ»(١).

- وعَنْ عُبَيْد مَوْلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ أَنَّ امْرَأَتَيْنِ صَامَتَا وَأَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه إِنَّ هَا هُنَا امْرَأَتَيْنِ قَدْ صَامَتَا وَإِنَّهُمَا قَدْ كَادَتَا أَنْ تَمُوتَا منَ الْعَطَشِ. فَأَعْرَضَ عَنْهُ أَوْ سَكَتَ ثُمَّ عَادَ وَأُرَاهُ قَالَ بِالْهَاجِرَةِ قَالَ يَا نَبِي اللَّه إِنَّهُمَا وَاللَّه قَدْ مَاتَتَا أَوْ كَادَتَا أَنْ تَمُوتَا. قَالَ «ادْعُهُمَا». قَالَ: فَجَاءَتَا قَالَ: فَجِيءَ بِقَدَحٍ أَوْ عُسٍّ فَقَالَ: لإِحْدَاهُمَا «قيئي». فَقَاءَتْ قَيْحاً أَوْ دَماً وَصَدِيداً وَلَحْماً حَتَّى قَاءَتْ نِصْفَ الْقَدَحِ ثُمَّ قَالَ لِلأُخْرَى: «قيئي». فَقَاءَتْ مِنْ قَيْحٍ وَدَمٍ وَصَدِيد وَلَحْمٍ عَبِيطٍ وَغَيْرِهِ حَتَّى مَلأَتِ الْقَدَحَ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَاتَيْنِ صَامَتَا عَمَّا أَحَلَّ اللَّهُ وَأَفْطَرَتَا عَلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﷻ عَلَيْهِمَا جَلَسَتْ إِحْدَاهُمَا إِلَى الأُخْرَى فَجَعَلَتَا تَأْكُلاَنِ من لُحُومِ النَّاسِ»(٢).

- وكذلك القول في فريضة الزكاة وأدائها في وقتها وتمامها وكمالها مبتعداً عن الرياء وحب السمعة يؤدِّيها بلا منٍّ ولا أذى كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٣).

- مع التقيد بكامل أركانها وآدابها ومستحباتها، وكذلك فريضة الحج يجب تحقيق أهدافها وأركانها وواجباتها وسننها ومستحباتها والتأدب بآدابها كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا

(١) أخرجه أحمد وابن خزيمة عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد والبيهقي.

(٣) سورة البقرة: ٢٦٢.

فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[1].

- وكما قال النبي ﷺ: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[2].

- فهذه الفرائض الخمس هي أهم الفروض الإسلامية وأوجبها، وهي متعينة الأداء على كل مكلف، ولكن هناك فروض وواجبات إسلامية غيرها يجب أداؤها من ذلك: أداء حقوق العباد المالية والثابتة في الذمة، أو التي دخلت عليك من طريق غير شرعي، والعدل في المبادلات المالية والمعاملات دون ظلم، ولا بخس حق، ولا غش ولا تطفيف كيل، ولا نقص وزن، ولا تدليس عيب، ولا قول كذب، ولا خيانة أمانة، ولا اختلاف في وعد، ولا نقض في عهد، ولا رجوع عن عقد بعد إبرامه دون خيار.

- ومن الواجبات إغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وإعانة الضعيف، وصلة الرحم، ورد السلام، وحسن اللقاء، ومعاملة الناس بخلق حسن، والنصيحة لعباد الله تعالى، وحب الخير لهم كما تحب لنفسك.

- ومن الواجبات: حسن القيام بالحقوق الزوجية الواجبة على الزوجين، والملاطفة في المعاشرة الزوجية، وحسن الجوار، والبعد عما يؤذيهم.

- ومن الواجبات الإسلامية: بر الوالدين، وصلة الرحم، وحسن الصلة بالآخرين، والوفاء معهم.

---

(١) سورة البقرة: ١٩٧.

(٢) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ﷺ.

- ومن الواجبات الإسلامية: تحسين الظن بالمسلمين، ما لم يشاهد فيهم غير ذلك، والستر على العصاة المستترين، والنصح لهم مع الدعاء لهم بالعافية من ذنوبهم.

- ومن الحقوق الواجبة على الإنسان حقوق الحيوان والرفق به فلا يجيعه ولا يوجعه، ولا يتعبه ولا يزعجه، ولا يحمله فوق طاقته، ولا يؤذيه بنفسه، ولا في أولاده، سواء في ذلك البهائم والطيور وغيرها.

- ومن الفروض الإسلامية: إبعاد النفس عن المحرمات وهي كثيرة فمنها: الربا والزنى، والخمر والميسر، والغضب والظلم، وشهادة الزور واليمين الغموس وقول الزور، وانتهاك الأعراض بالقذف ونحوه، والسباب والتعيير وكالتفسيق والتبديع والتكفير من غير دليل قطعي ثابت شرعاً، وتتبع عورات الناس وزلاتهم وأخطائهم وهفواتهم.

وكالسبّ والشتم واللعن، وكشف ستر المسلم، والغيبة والنميمة، وسوء الظن والسخرية بعباد الله تعالى، واحتقارهم والتكبر والعجب، والرياء والسمعة، والغرور وحب الظهور، والمفاخرة أو المكاثرة بالأولاد والأموال.

- كل ذلك من مقام قرب الفرائض أما مقام قرب النوافل فيجب أن نعلم أن النوافل هي الزيادة على الفرائض والواجبات، ولا تتحقق النافلة، وتعدّ زيادة على الفرائض والواجبات إلا إذا كملت للعبد فرائضه وواجباته كماً وكيفاً، فتصير الزيادة على ذلك نافلة.

- والنوافل تكمل نقص الفرائض، فقد روى أبو هريرة ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ بِصَلَاتِهِ فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ قَالَ

انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَيُكَمَّلُ بِهِ مَا نَقَصَ مِنْ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى نَحْوِ ذَلِكَ»[1].

- والنوافل هي العبادات والطاعات زيادة على الفرائض وهي أنواع متعددة:

أولاً- نوافل عملية: كأداء نوافل الصلاة المختلفة، مثل السنن الراتبة، وصلاة الضحى وقيام الليل والتهجد، وصلاة التسابيح وصلاة الحاجة، وصلاة التوبة وصلاة الاستخارة، والوتر، وسجدة التلاوة وسجدة الشكر.

- وصوم النفل كصوم يوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، أو صيام ثلاثة أيام من كل شهر.

- فعن أبي ذر ﷺ قال: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَصُومَ مِنْ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَامٍ الْبِيضَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ وَخَمْسَ عَشْرَةَ[2].

- وصيام ستة أيام من شوال، عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ»[3].

- وصوم عشر ذي الحجة، ويتأكدّ صيام يوم عرفة لغير الحاج.

- وكذلك الحج والعمرة النافلة.

- هذا ويجب أن نعلم أن أهم هذه النوافل قيام الليل فقد قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ وَمَنْهَاةٌ لِلإِثْمِ»[4].

---

(١) أخرجه الترمذي والنسائي وغيرهما.

(٢) أخرجه النسائي وابن حبان.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٤) أخرجه الترمذي وغيره عن أبي أمامة ﷺ.

- وقال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس في صعيد واحد يوم القيامة، فينادي مناد فيقول: أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فيقومون وهم قليل، فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم يؤمر بسائر الناس إلى الحساب»[1].

- وقال ﷻ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ ﴾[2].

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ ﴾[3].

- وقوله تعالى: ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾[4].

- فمن صلى في جوف الليل، فقد تقرب إلى الله تعالى، في الوقت الذي يتقرب الله تعالى إلى عباده قرباً خاصاً.

- قال رسول الله ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ»[5].

- وعن عبد الله بن أبي قيس ﷺ قال: قالت عائشة رضي الله عنها: (لاَ تَدَعْ قِيَامَ اللَّيْلِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ لاَ يَدَعُهُ وَكَانَ إِذَا مَرِضَ أَوْ كَسِلَ صَلَّى قَاعِدًا)[6].

---

(١) أخرجه البيهقي عن أسماء بن زيد.

(٢) سورة الإسراء: ٧٩.

(٣) سورة السجدة: ١٦.

(٤) سورة الذاريات: ١٧-١٨.

(٥) أخرجه الترمذي وغيره عن عمرو بن عبسة.

(٦) أخرجه أبو داود وأحمد وابن خزيمة وغيرهم.

لهذا يجب على المؤمن أن يحافظ على قيام الليل كل ليلة ولو بصلاة ركعتين قبل النوم، ويقوم للتهجد ولو بصلاة ركعتين قبل الفجر، وأن يجعل ذلك ديدنه وورده اليومي، فإن نام عنه قضاه بعد الفجر، فقد روى عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ»(١).

- وفي هذا الحديث إشارة تظهر ضرورة أن يضع المسلم لنفسه منهجاً في كل شيء، وخاصة في النوافل، فإذا حصل له ما يمنعه من أدائها لأي سبب ألزم نفسه قضاءها ولو بعد حين حتى لا يعود نفسه تركها وإهمالها.

- هذا وإن المسلم يثاب على نيته إن غلبته عينه، فنام ولم يقم بالعمل، فقد روى أبو الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّى أَصْبَحَ كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﷻ»(٢).

ثانياً- نوافل قولية: وأبوابها كثيرة وواسعة منها: المواظبة على تلاوة كتاب الله تعالى، والإكثار من الصلاة على النبي ﷺ، والإكثار من التهليل والتسبيح، والتحميد والتكبير، وجميع أنواع ذكر الله تعالى بأسمائه وصفاته، ومحامده ودعائه.

ثالثاً- نوافل مالية: ومؤدُّوها هم المحسنون الذين ذكرهم الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾(٣).

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه النسائي وابن ماجه وغيرهما.

(٣) سورة آل عمران: ١٣٤.

- فمساعدة الفقراء والمساكين والمحتاجين وخاصة الأقرباء وإعطاؤهم من مال غير الزكاة تطوعاً هو من أهم النوافل، وقد بين النبي ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ ودله على أبوب الخير فقال له: «أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ»(١).

- وقال ﷺ: «صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ»(٢).

(١) أخرجه الترمذي.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة ﷺ.

المطلب الرابع

الإكثار من ذكر الله في كل الأحوال والصلاة على النبي ﷺ

- هذا ولابد لمن أراد سلوك طريق التصوف من الإكثار من ذكر الله ﷻ والصلاة على النبي ﷺ في كل أحواله.

أ- ذكر الله ﷻ: فذكر الله ﷻ يعمق معرفة العبد بربه والصلة به، ومحبته والشعور بمعيته ومناجاته ومراقبته، فيمنحه ذلك قوة الثبات، وقوة اليقين،و وقوة الإيمان، وقوة الاستقامة.

- والمقصود بالذكر أن يتذكر المسلم ربه دائماً في كل أحواله وتصرفاته فيذكره بالرضا والطمأنينة والحمد والشكر والخشوع والإنابة والتوبة والتوجه والسؤال والمناجاة والدعاء.

- فلا يغيب قلبه وفكره في أوقاته وأعماله كلها عن الله ﷻ، وهذا الذكر هو المقصود في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[1].

- ويجب أن يذكر المسلم ربه كثيراً كما أمره في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٠-١٩١

(٢) سورة الأحزاب: ٤١

- وينبغي للمؤمن ألا يشغله شاغل عن ذكر الله وأن لا يلتهي بشيء عنه، عملاً بقول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ ﴾[1].

- وقوله تعالى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧ ﴾[2].

- ومن أهم ثمار الذكر الحقيقي طمأنينة القلب وخشوعه ووجله قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ﴾[3].

- وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ﴾[4].

- وللحفاظ على إيماننا بربنا وحبنا وطاعتنا له أمرنا سبحانه وتعالى بأن نبتعد عن طاعة الغافلين عن ذكره وعن مجالستهم، فقال سبحانه: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾[5].

---

(١) سورة المنافقون: ٩.

(٢) سورة النور: ٣٧.

(٣) سورة الرعد: ٢٨.

(٤) سورة الأنفال: ٢.

(٥) سورة الكهف:٢٨

- ولقد حذر الله سبحانه وتعالى من الإعراض عن ذكره مبيناً أن الإعراض عنه والغفلة عن ذكره يجعل حياة الإنسان صعبة ضيقة ممتلئة بالمتاعب والمكاره والأحزان، ويورث قسوة القلب، فقال سبحانه وتعالى مشيراً إلى ذلك: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[1].

- والله ﷻ ينبهنا إلى ضرورة ذكره الذكر الكثير لنكون من المؤمنين الصادقين، ونبتعد عن صفات المنافقين التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾[2].

- ولئن تحدث القرآن كثيراً عن الذكر فإن رسول الله ﷺ لم يغفل الحديث عنه بل أشاد به، وأكثر من الحديث عنه، ومما قاله ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»[3].

- وقوله ﷺ: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا». قَالَ وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ قَالَ: «حِلَقُ الذِّكْرِ»[4].

- وقال ﷺ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ». قَالُوا بَلَى.

---

(١) سورة طه: ١٢٤.

(٢) سورة النساء: ١٤٢.

(٣) أخرجه البخاري عن أبي موسى ﷺ.

(٤) أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك ﷺ.

قَالَ: «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى»[1].

وقد يقول قائل كيف أذكر الله الذكر الكثير؟

- فأقول له: اذكر الله كما أمرك في قرآنه، واذكره كما علمك النبي ﷺ، فقد بين الله ﷻ في قرآنه، والنبي ﷺ في سنته أن الذكر له أنواع متعددة منها:

أولاً- القرآن الكريم:

- قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[2].

- وقال سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٨٧﴾[3].

- وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾[4].

- فقارئ القرآن ذاكرٌ ومن يحفظ آية من آياته فيرددها فهو ذاكر، ومن يستمع إلى القرآن، ويفكر في معانيه فهو ذاكر، ومن يعمل بأوامر القرآن وينتهي عن نواهيه فهو ذاكر.

- بل إن القرآن الكريم هو أعظم الذكر، لأن قراءته تلاوة لكلام الله ﷻ الذي فيه الشفاء من كل داء، ففيه آيات بينات من لدن حكيم عليم، تدخل القلب، وتطمئن لها النفس، وتقشعر لها الأبدان، ويزداد بها القارئ إيماناً، ويسرع إلى تطبيقها، وتنفيذ أوامرها، والبعد عن نواهيها، فتتهذب بها نفسه، ويطمئن قلبه، وتسمو روحه، فيصبح وكأنه ملك يمشي على وجه الأرض.

---

(١) أخرجه الترمذي عن أبي الدرداء ﷺ.

(٢) سورة الحجر: ٩.

(٣) سورة ص: ٨٧.

(٤) سورة القمر: ١٧.

ثانياً– أداء الفرائض: أداء الفرائض ذكر لله ﷻ، فالصلاة مثلاً فيها ركوع وسجود، وقراءة للقرآن وتسبيح وتهليل، وكل ذلك ذكر لله ﷻ، لأن الغاية من العبادات ذكر الله ﷻ، قال تعالى:

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾﴾[1].

– وكذلك الصوم والزكاة والحج كلها ذكر لله ﷻ.

ثالثاً– العلم: مجالسة العلماء، وطلب العلم، وقراءته ومدارسته وتدريسه، وحفظه وتحفيظه، والغدوّ والرّواح في طلبه، كل ذلك ذكر لله ﷻ، قال تعالى: ﴿رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[2].

وأهل الذكر هنا: أهل العلم.

رابعاً– ذكر الله ﷻ بجميع أشكاله: كذكر أسمائه وصفاته، أو تسبيحه وتحميده، وتمجيده وتكبيره، وتهليله واستغفاره ودعائه، كل ذلك ذكر لله ﷻ، وذكر الله هذا على نوعين:

١– **ذكر الله الخاص بالأعمال والأوقات والمناسبات:** وذلك بأذكار وأدعية وجهنا إليها رسول الله ﷺ في سيرته وأحاديثه كدعاء الاستيقاظ أو دعاء دخول بيت الخلاء، أو دعاء الطعام أو الشراب، أو غير ذلك.

٢– **ذكر الله العام وتسبيحه:** في كل الأوقات والأحوال، وخاصة عقب الصلاة، وفي الصباح والمساء، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا

---

(١) سورة طه: ١٤.

(٢) سورة النحل: ٤٣.

بَٰطِلًا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾[2].

وهذا الذكر على ثلاثة أنواع:

ذكر اللسان: الذي كان يرشد إليه الرسول ﷺ في كثير من أحاديثه:

«لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللَّهِ»[3].

أ- **ذكر القلب:** الذي وجه الله إليه في قوله سبحانه:

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾[4].

وفيه قال ﷺ: «خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ»[5].

وقال ﷺ: «اذكروا اللهَ ذكرا خاملا قيل وما الذكرُ الخاملُ قال الـذكرُ الخَفيُّ»[6].

وقال ﷺ: مشيراً لأهمية الذكر الخفي: «الذكر الذي لا تسمعه الحفظة يزيد على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين ضعفاً»[7].

---

(١) سورة آل عمران: ١٩١.

(٢) سورة الأحزاب: ٤٢.

(٣) أخرجه أحمد والبيهقي عن عبد الله بن بُسر ﷺ.

(٤) سورة الأعراف: ٢٠٥.

(٥) أخرجه أحمد عن سعد بن مالك ﷺ.

(٦) أخرجه ابن المبارك عن ضمرة بن حبيب مرسلاً وقال المناوي حديث حسن في جامع الأحاديث.

(٧) أخرجه البيهقي عن عائشة رضي الله عنها وهو حسن لغيره.

ب- **الذكر العملي**: وهو أن يذكر المسلم ربه في جميع أحواله وأعماله، وأن يراقبه في كل حركاته وسكناته، ولا يغفل عنه أبداً، وقد عبر العارفون عن هذا الذكر بقولهم: نعيش مع الناس بأجسامنا في هذه الحياة في معاملتنا لهم واختلاطنا بهم وبيعنا وشرائنا، لكن قلوبنا في كل ذلك مع الله ﷻ لا نغفل عن ذكره وتذكره أبداً.

وللذكر فوائد كثيرة حاول الإمام ابن القيم استيفاءَها فتجاوزت عنده المئة أذكر منها:

(يرضي الرحمن، ويطرد الشيطان، ويزيل الهم، ويجلب السرور، ويقوي القلب والبدن، وينور القلب والوجه، ويجلب الرزق، ويكسب المهابة والحلاوة، ويورث محبة الله تعالى التي هي روح الإسلام، ويورث المعرفة والإنابة والقرب وحياة القلب، وذكر الله للعبد.

وهو قوت القلب وروحه ويجلو صدأه، ويحط الخطايا، ويرفع الدرجات، ويحدث الأنس، ويزيل الوحش، ويذكر بصاحبه، وينجي من عذاب الله، ويوجب تنـــزل السكينة، وغشيان الرحمة وحفوف الملائكة بالذاكر، ويشغل عن الكلام الضار، ويسعد الذاكر، ويسعد به جليسه، ويؤمن العبد من الحسرة يوم القيامة، وهو مع البكاء سبب إظلال الله للذاكر، وبه تحصل العطايا والثواب المتنوع من الله تعالى.

وهو يثمر المعارف والأحوال الجليلة، والذاكر قريب من مذكوره والله معه وأكرم الخلق على الله: من لا يزال لسانه رطباً من ذكر الله.

وهو يعين على طاعة الله ويسهل كل صعب، وييسر الأمور، ويعطي الذاكر قوة في قلبه وبدنه، وهو سد بين العبد ونار جهنم، وتستغفر الملائكة

للذاكر، وتتباهى الجبال وبقاع الأرض بمن يذكر الله عليها، وتشهد له، والذكر أمان من النفاق...)[1].

ب- الصلاة على النبي ﷺ:

- ويرتبط بذكر الله ﷻ الصلاة على النبي ﷺ، حيث ينبغي للمسلم أن يعلم أن من أساليب كلام الله ﷻ في قرآنه، أنه إذا أراد أمراً أو نهياً أو تنبيهاً أو موعظة للمؤمنين يستعمل أسلوب النداء للمؤمنين مباشرة فيقول سبحانه: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ)) ومن واجب المؤمن عند سماع مثل هذا النداء أن يقول مباشرة: لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك، عبدك بين يديك مستعدٌ لتنفيذ أوامرك، واجتناب نواهيك، والعمل بما يرضيك.

- لكن في القرآن الكريم آية واحدة تأتي بتصدير مهم قبل النداء يوضح ويبين ويظهر أهمية ما سيأتي بعد النداء، ثم يأتي بعد ذلك نداء المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾[2].

- والصلاة في اللغة تعني الدعاء، وفي اصطلاح هذه الآية: الثناء على النبي ﷺ وتمجيده وتعظيمه.

- والمقصود من هذه الآية أن يخبر الله سبحانه وتعالى عباده بمنـــزلة ومكانة عبده ونبيه المصطفى ﷺ عنده وفي الملأ الأعلى، وأظهر ذلك بصلاته عليه، وصلاة الله تعني ثناءه عليه، وإظهار عظمته ومكانته عنده، يخبر بذلك عباده عن هذه المنزلة الرفيعة التي لم يبلغها أحد سواه.

- كذلك بين سبحانه أن الملائكة تصلي عليه أيضاً وذلك بدعائها للنبي

---

(١) ابن القيم: الوابل من الكلم الطيب.

(٢) سورة الأحزاب: ٥٦.

ﷺ واستغفارها له، وأن يزيده الله رفعة ومكانة وشرفاً وقربة.

– ثم جاء الأمر لجميع المؤمنين أن يصلوا عليه ويسلموا تسليما، وصلاة المؤمنين على النبي ﷺ دعاء له بإعلاء ذكره وإظهار دينه، وإبقاء شـــريعته في الدنيا، وإجزال مثوبته، ورفع مقامه وتشفيعه بأمته في الآخرة.

– قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: (ليست الصلاة على رسول الله ﷺ شفاعة منا له، فإن مثلنا لا يشفع لمثله، ولكن الله سبحانه أمرنا بمكافئة من أنعم علينا، وأحسن إلينا فإن عجزنا عن مكافأته دعونا له بأن يكافئه الله عنَّا، ولما عجزنا عن مكافأة سيد الأولين والآخرين أمرنا رب العالمين أن نرغب إليه، وأن نصلي عليه لتكون صلاتنا عليه مكافئة لإحسانه إلينا وإفضاله علينا)[1].

– هذا وإن الله ﷻ لما أمرنا بالصلاة على النبي ﷺ و لم نبلغ قدر الواجب من ذلك أحلنا الأمر على الله تعالى وقلنا: اللهم صلِّ أنت على سيدنا محمد، لأنك أعلم بما يليق به فنحن عاجزون عن توفيته حقه وقاصرون عن معرفة الثناء الذي يليق بقدره.

– جاء في تفسير الآلوسي: إن هذه الآية، آية الصلاة على النبي ﷺ تفيد الدوام والاستمرار نظراً إلى صدرها من حيث إنها جملة اسمية، وتفيد التجدد نظراً إلى عجزها من حيث إنها جملة فعلية، فيكون مفادها استمرار صلاة الله وملائكته على النبي ﷺ وتجددها وقتاً فوقتاً دون نفادٍ ولا انقطاع.

– من تواضع النبي ﷺ أنه عندما علمنا كيفية الصلاة عليه بقوله: ((اللهم صلِّ على محمد)) لم يُسَوِّدْ نفسَهُ فإن من حقّه علينا أن نقول احتراماً له وتقديراً لذكره ما علمنا إياه السادة العلماء الأفاضل مما استنبطوه من

---

(١) ابن حجر: فتح الباري، جزء١١، ص١٦٨.

القرآن والسنة: اللهم صلِّ على سيدنا محمد، فهو ﷺ سيدنا في الدنيا، وسيدنا في الآخرة، ومن أهم تلك الأدلة في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[1].

- ومن الأدلة من السنة، قوله ﷺ وهو يتحدث عن جملة المراتب الخاصة به: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ»[2].

- فالصلاة على النبي ﷺ واجبة لا يجوز تركها، ولا يغفل عنها إلا من لا خير فيه من الناس.

قال القاضي عياض رحمه الله: (اعلم أن الصلاة على النبي ﷺ فرض على الجملة غير محدد بوقت لأمر الله تعالى بالصلاة عليه، وحمل الأئمة والعلماء الأمر على الوجوب وأجمعوا عليه)[3].

- وقال جمهور العلماء: إن الصلاة على النبي ﷺ قربة وعبادة كالذكر والتسبيح والتحميد، وهي مندوبة ومسنونة في كل وقت وحين، وإنه ينبغي الإكثار منها.

- فالصلاة على النبي ﷺ تفرض في آخر الصلاة في التشهد الأخير، قال ابن عمر ﷺ: (لا تكون صلاة إلا بقراءة تشهد وصلاة على النبي ﷺ)[4].

---

(١) سورة النور: ٦٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) العلامة القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، جزء٢، ص٦١.

(٤) ابن قيم الجوزية: جلاء الأفهام، ص٣٣٠.

- والصلاة على النبي ﷺ تجب عند ذكر النبي ﷺ على الذاكر والسامع، فقد روى أنس ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلْيُصَلِّ عَلَيَّ»[1].

- وقد ورد الوعيد الشديد لمن لم يُصَلِّ عليه إذا ذكر ﷺ جاء ذلك في العديد من الأحاديث الصحيحة، من ذلك الوعيد الدعاء على تارك الصلاة عليه ﷺ بالإبعاد والذل ووصفه بالبخل والجفاء وأنه قد أخطأ طريق الجنة.

فقد قال رسول الله ﷺ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَقَالَ: مَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ قُلْ: آمِينَ»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ»[3].

أَيْ لَصِقَ أَنْفُهُ بِالتُّرَابِ كِنَايَةً عَنْ حُصُولِ الذُّلِّ[4].

- وقال ﷺ: «من ذُكِرتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ فقد شَقِيَ»[5].

وقال رسول الله ﷺ: «الْبَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ»[6].

- قال العلامة الفاكهاني: (وهذا أقبح بخل وأشنع شح، لم يبقَ بعده إلا الشح بكلمة الشهادة)[7]. أعاذنا الله تعالى وجميع المؤمنين من ذلك.

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده.

(٢) أخرجه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي جزء ٩ ص٣٧٢.

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط وفيه الفضل بن مبشر وفيه كلام وقد وثقه ابن حبان وغيره.

(٦) أخرجه الترمذي عن علي ﷺ.

(٧) المناوي: فيض القدير، جزء٣، ص٢٨٣.

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَخَطِئَ الصَّلاةَ عَلَيَّ، خَطِئَ طَرِيقَ الْجَنَّةِ»[1].

- فما أحرانا بعد كل ما سمعناه وعرفناه، أن نكثر من الصلاة عليه في كل وقت وحين.

- (رؤي الشافعي ﷺ في المنام بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، فقيل له بماذا؟ قال: بخمس كلمات كنت أصلي بها على رسول الله ﷺ، فقيل له: وما هي تلك الكلمات. قال: كنت أقول: (اللهم صلِّ على سيدنا محمد عدد من صلى عليه، وصلِّ على سيدنا محمد عدد من لم يصلِّ عليه، وصلِّ على سيدنا محمد كما أمرت أن يصلى عليه، وصلِّ على سيدنا محمد كما تحب أن يصلى عليه، وصلِّ على سيدنا محمد كما ينبغي أن يصلى عليه)[2].

- من أحب شيئاً أكثر من ذكره ومن أحب النبي ﷺ أكثر من ذكره ومن الصلاة عليه.

- ويجب على كل مسلم محب لرسول الله ﷺ أن يعلم أن الصلاة على النبي ﷺ مقبولة قطعاً.

يقول الشيخ الفاسي[3] في شرحه على "دلائل الخيرات": (وكل الأعمال فيها المقبول والمردود إلا الصلاة على النبي ﷺ فإنها مقبولة غير مردودة).

---

(١) أخرجه الطبراني عن الحسين بن علي رضي الله عنهما.

(٢) انظر الدر المنضود وعند البيهقي.

(٣) الفاسي: أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن حامد بن أبي المحاسن العربي المغربي الفاسي القصري المالكي وتوفي سنة ١٠٥٢هـ [البابانى: هدية العارفين].

ثم قال: (الصلاة على النبي ﷺ مجابة على القطع فإن اقترن بها السؤال شفعت بفضل الله تعالى فقبل السؤال، وهذا المعنى مذكور عن بعض السلف)[1].

- مع أن صلاتنا على النبي ﷺ تعني تعبيراً عن حبنا وتقديرنا له بأنه قد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة التي بفضله وصلت إلينا فعرفنا بربنا ومنّ الله به علينا بالإيمان والإسلام والإحسان.

وأن صلاتنا على النبي ﷺ تحمل دعاءً وثناءً على النبي ﷺ بأن يؤتيه الله الوسيلة والدرجة العالية الرفيعة والمقام المحمود الذي وعده.

مع كل ذلك فإن صلاتنا عليه ﷺ ننال بها مكافأة عظيمة من الله عز وجل، فقد روى أبو طلحة الأنصاري فقال: «أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَوْماً طَيِّبَ النَّفْسِ يُرَى فِي وَجْهِه الْبِشْرُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه أَصْبَحْتَ الْيَوْمَ طَيِّبَ النَّفْسِ يُرَى فِي وَجْهِكَ الْبِشْرُ. قَالَ: أَجَلْ أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ صَلاَةً كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَهَا»[2].

- فأي شيء أعظم من أن يصلي الله على عبده فيخرجَهُ من الظلمات إلى النور، من ظلمات المعاصي وظلمات القسوة وظلمات الضيق والأمراض والأسقام، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾[3].

---

(١) الفاسي: مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

(٣) سورة الأحزاب: ٤٣.

- وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي صلاة واحدة بلغتني صلاته وصليت عليه وكتب له سوى ذلك عشر حسنات»[1].

- فإذا صليت على النبي ﷺ بلغت صلاتك النبي ﷺ وقيل له فلان ابن فلان (باسمك الخاص) من أمتك يصلي عليك فيرد عليك النبي ﷺ ويقول: ((اللهم صلِّ على فلان)).

فأي شرف وأي لذة، وأي عطاء في أن يصلي النبي ﷺ عليك باسمك في الحضرة الإلهية فتستفيد سكينة للقلب، ومغفرة للذنب، وارتقاء لمقام القرب، ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾[2].

- وللصلاة على النبي ﷺ فوائد كثيرة صرَّحت بها أحاديث النبي ﷺ المتعددة فمن أهم تلك الفوائد صلاة الله وسلامه مع ملائكته على من صلى عليه.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا»[3].

وفي رواية لأحمد: «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَمَلَائِكَتُهُ سَبْعِينَ صَلَاةً فَلْيُقِلَّ عَبْدٌ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لِيُكْثِرْ».

- ويرحم الله تعالى القائل:

إذا أنت أكثرت الصلاة على الذي ... صلّى الله عليه في الآيات

وجعلتها ورداً عليك محتماً ... لاحت عليك دلائل الخيرات

- ومن تلك الفوائد التي ذكرتها الأحاديث الشريفة تكفير الخطايا، وتزكية الأعمال، ورفع الدرجات، ومغفرة الذنوب، ومحو الخطايا، هذا وإنَّ

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه.

(٢) سورة التوبة: ١٠٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه.

بركة الصلاة على النبي ﷺ وخيراتها تدرك الرجل المصلي وولده، وولد ولده، ومنها أنها تزين المجالس وتنفي الفقر وضيق العيش، وتقرب إلى الله ورسوله، وهي سبب عظيم لقضاء الحاجات ونيل المرادات، تفتح أمام المصلي على النبي ﷺ أبواب الخير، فيلتمس ببركتها كل محبوب، وهي سبب عظيم في إجابة الدعاء، وهي نور لصاحبها في قبره، ويوم حشره، وعلى الصراط، ويكتب الله بين عينيه براءة من النار، وبراءة من النفاق، ويكون يوم القيامة مع الشهداء.

فهي من أكثر الأعمال بركةً وأفضلها نفعاً في الدنيا والآخرة، وكثرة صلاة المصلي على النبي ﷺ تدل على خالص حبه له ﷺ لأن الذي يحب شيئاً يكثر من ذكره.

- وإذا كان كل وقت يستحب فيه الصلاة على النبي ﷺ فإن هناك مواطن تشرع فيها الصلاة على النبي ﷺ فمنها:

- التشهد الأخير من كل صلاة فريضة أو نافلة فهي واجبة.

- عقب إجابة المؤذن. فقد قال النبي ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»[1].

- ومن المواطن التي يسن فيها الصلاة عليه ﷺ: عند دخول المسجد وعند الخروج منه، عن فاطمة رضي الله عنها: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ وَقَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ. وَإِذَا خَرَجَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ وَقَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن عمرو بن العاص ﷺ.

وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ»[1].

- وفي صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثانية.

- ومن المواطن أيضاً: الصلاة عليه ﷺ عند الصباح وعند المساء. فقد قال النبي ﷺ: «من صلى عليَّ حين يصبح عشرًا وحين يمسى عشرًا أدركته شفاعتي يوم القيامة»[2].

- ومنها عند الاجتماع والتفرق: قال رسول الله ﷺ: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فيه وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ إِلاَّ كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً[3] فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ»[4].

- وتسن الصلاة على النبي ﷺ عند كل كلام خيّر ذي بال، وعند افتتاح الخطب والدروس، وقراءة الأحاديث، وعقب الصلاة، وختم القرآن الكريم، وفي دعاء الحاجة، ويوم عرفة، وعند زيارته ﷺ، وعند نسيان الشيء، فيذكره إن شاء الله.

- وقد ورد الأمر بالإكثار من الصلاة على النبي يوم الجمعة وليلتها، قال رسول الله ﷺ: «أَكْثِرُوا الصَّلاَةَ عَلَيَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَإِنَّهُ مَشْهُودٌ تَشْهَدُهُ الْمَلاَئِكَةُ وَإِنَّ أَحَدًا لَنْ يُصَلِّيَ عَلَيَّ إِلاَّ عُرِضَتْ عَلَيَّ صَلاَتُهُ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا. قَالَ قُلْتُ وَبَعْدَ الْمَوْتِ قَالَ: وَبَعْدَ الْمَوْتِ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ. فَنَبِيُّ اللَّهِ حَيٌّ يُرْزَقُ»[5].

---

(١) أخرجه الترمذي.

(٢) أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء ﷺ.

(٣) تِرَة: حسرة وندامة.

(٤) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ﷺ.

(٥) أخرجه ابن ماجه عن أبي الدرداء ﷺ.

- كان الصحابة الكرام، والتابعون، وأولياء الله وأحبابه يكثرون من الصلاة على النبي محمد ﷺ بل كان بعضهم يقتصر في دعائه على الصلاة عليه ﷺ فلا يسأل الله شيئاً إلا الصلاة على النبي محمد ﷺ وما عليه إذا فعل ذلك وقد ضمن الله له بذلك أن يكفى هموم الدنيا والآخرة، وماذا يبتغي العبد من دعائه مهما كان جامعاً إلا هذا الطلب.

عن أبي بن كعب ﷺ قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلاَةَ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلاَتِي [أي: فكم أجعل من دعائي صلاة عليك] فَقَالَ: «مَا شِئْتَ». قَالَ قُلْتُ: الرُّبُعَ. قَالَ: «مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قُلْتُ: النِّصْفَ. قَالَ: «مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قَالَ قُلْتُ: فَالثُّلُثَيْنِ. قَالَ: «مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلاَتِي كُلَّهَا. قَالَ: «إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ»[1].

- **أخيراً**: ينبغي للمسلم الذي سلك طريق التصوف، طريق التزكية والإحسان أن يجعل لنفسه ورداً خاصاً يومياً للصلاة على النبي ﷺ، وأن يكثر من هذه الصلاة، وأن يجلس في مجالسها، وأن يحب أهلها.

(١) أخرجه الترمذي.

المطلب الخامس

السعي على سلامة القلب وصلاحه

- للقلب أهمية كبرى أظهرها القرآن الكريم في العديد من آياته، فقد ذكر القلب في القرآن الكريم عشرين مرة بالإفراد، واثنتي عشرة ومائة مرة بصيغة الجمع.

- والقلب لطيفة ربانية، لها بهذا القلب الجسماني الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر تعلُّق، وقد جعل الله بصحته وبقائه وانتظام دورته حياة الجسد، وبسلامته وطهارته وصلاحه حياة الروح، قال رسول الله ﷺ: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ. أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ»[1].

- والقلب موضع الإيمان والكفر، والإنابة والإصرار، والطمأنينة والاضطراب، وهو محل العلم والتقوى، والنية والإخلاص والذكرى، والحب والبغض، والوسواس والخطرات، فالقلب هو العالم بالله ﷻ، وهو المتقرب إلى الله ﷻ، وهو العامل لله ﷻ، وهو الساعي إلى الله ﷻ، وإنما الجوارح أتباع للقلب وخدم، كما قال أبو هريرة ﷺ: (القلب ملك وله جنود فإذا صلح الملك صلحت جنوده وإذا فسد الملك فسدت جنوده)[2].

وقد جعل القرآن القلوب على ثلاثة أحوال:

١- **القلب الميت وهو قلب الكافر:** (وهو الذي لا حياة فيه، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره، وبما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته

---

(١) أخرجه البخاري عن النعمان بن بشير ﷺ.

(٢) أخرجه البيهقي وعبد الرزاق.

ولذاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه، رضي ربه أم سخط)[1].

فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سايسه، والغفلة مركبه، وهذا قلب الكافر الذي ختم الله على قلبه وأصبح الران في أعماقه، ذكره الله في قرآنه بقوله: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾[2].

وقوله ﷻ: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[3].

٢- **القلب المريض وهذا قلب المنافق:** (وهو القلب الذي له حياة وبه علة، ففيه من محبة الله، والإيمان به، والإخلاص له، والتوكل عليه، ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر والعجب، وحب العلو بالأرض بالرياسة ما هو مادة هلاكه وعطبه.

وهو ممتحن من داعيين: داعٍ يدعوه إلى الله ﷻ ورسوله ﷺ والدار الآخرة، وداعٍ يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه باباً، وأدناهما إليه جواراً)[4].

ويشير إلى ذلك قوله سبحانه:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم

---

(١) ابن قيم الجوزية: طب القلوب: ص٣٧.

(٢) سورة البقرة: ٧.

(٣) سورة المطففين: ١٤.

(٤) ابن قيم الجوزية: طب القلوب: ص٣٨.

مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾[1].

٣- **القلب الصحيح وهو قلب المؤمن:** وهو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، كما قال تعالى:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[2].

قال سعيد بن المسيب[3] رحمه الله تعالى: (القلب السليم: هو القلب الصحيح وهو قلب المؤمن)[4].

(والقلب السليم: وهو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله، إرادة ومحبة، وتوكّلاً وإنابة، وإخباتاً وخشية، وخلص عمله لله ﷻ، فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله)[5].

والقلب السليم: هو الذي سلم من جميع العقائد الفاسدة، والأخلاق الرذيلة، والميل إلى المعاصي والشهوات.

---

(١) سورة البقرة: ٨-١٠.

(٢) سورة الشعراء: ٨٨-٨٩.

(٣) (سعيد بن المسيب) أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة.جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاء. وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته، حتى سمي راوية عمر. توفي بالمدينة سنة (٩٤هـ/٧١٣م) [الأعلام للزركلي].

(٤) تفسير ابن كثير.

(٥) ابن قيم الجوزية: طب القلوب: ص٣٥.

والقلب السليم: هو الذي سلم من الكفر والشقاق، ومن الشك والتردد، وسلم من الرياء والفخر والكبر، والحقد والحسد والغش، وجميع أمراض القلب، وسلم من الأهواء والشهوات والمغريات والمعاصي والآثام.

– والسؤال هو كيف نصل إلى هذا القلب بهذه المعاني؟

كيف يجعل المسلم قلبه قلباً صحيحاً سليماً صالحاً منيباً؟

الجواب: باتباع الأمور الأساسية التي تساعد على امتلاك هذا القلب:

أولاً: السعي الحثيث إلى تعميق الإيمان بالله في القلب، والوصول به إلى حد اليقين بشتى الوسائل حتى لا يكون إيماننا ادعاءً، كالأعراب الذي قال عنهم سبحانه: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾[1].

– قال تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[2].

– ومن هداية الله لهذا القلب أن يحبب إليه الإيمان، ويزينه فيه، ويكره إليه الكفر والفسوق والعصيان كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ ﴾[3].

ثانياً: المحافظة على هداية الله لهذا القلب، وتمكن الإيمان فيه، ووصوله إلى معرفته معرفة حقيقية، وثباته على ذلك، حتى يصل إلى انشراح صدره الذي يستوطن القلب فيه، قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ

---

(١) سورة الحجرات: ١٤.

(٢) سورة التغابن: ١١.

(٣) سورة الحجرات: ٧.

وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

- عن أبي جعفر[2] قال: (لما نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾قالوا: كيف يشرح الصدر؟ قال: إذا نزل النور في القلب انشرح له الصدر وانفسح . قالوا: فهل لذلك آية يعرف بها؟ قال: نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الفوت)[3].

- فإذا وصل المسلم إلى هداية الله له، وشرح صدره، قذف في قلبه نوراً، يصبح القلب بهذا النور ذاكراً لله ليناً سليماً، صحيحاً صالحاً منيباً، قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[4].

- وبذلك يصل ذلك المسلم إلى ما وصل إليه الصحابي الجليل حارثة من الإيمان الحق: فعَنِ الْحَارِثِ بن مَالِكٍ الأَنْصَارِيِّ، أَنَّهُ مَرَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثُ؟» قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا، فَقَالَ: «انْظُرْ مَا تَقُولُ؟ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟» فَقَالَ: قَدْ عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَأَسْهَرْتُ لِذَلِكَ لَيْلِي، وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٥.

(٢) أبو جعفر الهاشمي المدائني: عبد الله بن المسور بن عون بن جعفر بن أبي طالب. روى عنه عمرو بن مرة، وخالد بن أبي كريمة . مترجم في ابن أبي حاتم وغيره [عن تفسير الطبري].

(٣) تفسير الطبري.

(٤) سورة الزمر: ٢٢.

رَبِّي بَارِزًا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَوْنَ فِيهَا، فَقَالَ: «يَا حَارِثُ عَرَفْتَ فَالْزَمْ» ثَلاثًا[1].

- كذلك فإن الله ﷻ يجعل لهذا العبد واعظاً من قلبه يأمره وينهاه كما بين ﷺ في قوله: «إذا أراد الله بعبده خيرا جعل له واعظاً من قلبه»[2].

ثالثاً: الاستجابة لما يدعو إليه الله ورسوله، والتزام أوامر الله، والبعد عن نواهيه، والتقيد بأحكامه، والبعد عن معاصيه، وكل ذلك يؤدي إلى حياة قلب المسلم، واستمراريته على سلامته وصحته وصلاحه وإنابته، وكل ذلك أيضاً يساعد ألا يحول الله ﷻ بين المسلم وبين قلبه بتقلب أحوال القلب أو مرضه أو موته، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[3].

- هذا وقد تحدث النبي ﷺ عن تقلب هذا القلب، فقد روى أنس بن مالك ﷺ قال كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا قَالَ «نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»[4].

- وقال ﷺ: «قلب المؤمن أشد تقلباً من القدر في غلياها»[5].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير.

(٢) أخرجه الديلمي عن أم سلمة رضي الله عنها.

(٣) سورة الأنفال: ٢٤.

(٤) أخرجه الترمذي.

(٥) أخرجه أحمد والحاكم عن المقداد بن الأسود ﷺ.

- وقال ﷺ: «مثل القلب مثل العصفور فيقلب كل ساعة»[1].

- وقال ﷺ: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْقَلْبُ مِنْ تَقَلُّبِهِ إِنَّمَا مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ يُقَلِّبُهَا الرِّيحُ ظَهْراً لِبَطْنٍ»[2].

- بالنظر إلى سرعة تغير القلب بهذا الشكل علينا الاستجابة لما يدعونا إليه الله ورسوله ففيه حياتنا، لنكون في حصن من ذلك التغير والتبدل السريع، ولنكون دائماً على حذر وانتباه، ولنكثر من قولنا:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾[3].

رابعاً: المحافظة على تلاوة القرآن الكريم، والتزام أحكامه والعمل بأوامره والابتعاد عن نواهيه.

والانتفاع بالقرآن وما فيه إنما يحصل لمن كان حيَّ القلب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾[4].

- كما أن الانتفاع بمواعظه شفاء لما في الصدور، فالقلب في الصدر كما نعلم، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[5].

- أما الذي لا يقرأ القرآن ولا يتدبره ولا يعمل به، فإن قلبه مقفل

---

(١) أخرجه الحاكم والبيهقي عن أبي عبيدة بن الجراح ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد عن أبي موسى ﷺ.

(٣) سورة آل عمران: ٨.

(٤) سورة ق: ٣٧.

(٥) سورة يونس ٥٧.

مغلق، كما بين ذلك سبحانه في قوله:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

خامساً: المحافظة على ذكر الله الذكر الكثير، كما أمر سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ﴾[2].

- لأن ذكر الله هو الوسيلة التي تجعل القلب مطمئناً قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾[3].

- ولأن الذكر سبب خشوع القلب، قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[4].

- ومن لا يذكر الله ﷻ، فإنه يصاب بقساوة في قلبه، تنتهي به إلى الخسران والضلال والضياع كما وضح ذلك سبحانه في قوله:

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[5].

- فلابد للقلب من ذكر الله والمداومة عليه لأن الذكر يصقل القلب وينوره، ويمسح عنه الغفلة، والران والحجب الكثيفة التي تغشاه قال رسول الله ﷺ: (إن

---

(١) سورة محمد: ٢٤.

(٢) سورة الأحزاب: ٤١.

(٣) سورة الرعد: ٢٨.

(٤) سورة الحديد: ١٦.

(٥) سورة الزمر: ٢٢.

لكل شيء صقالة، وإن صقالة القلوب ذكر الله)[1].

- وبما أن للذكر أنواعاً متعددة فعلينا أن نوليَ الذكرَ الخفي الذي يقوم به القلب عناية خاصة، فهو خيرها، كما بين ذلك النبي ﷺ بقوله: «خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ»[2].

سادساً: صحبة المؤمنين الصادقين ومجالستهم، والبعد عن الغافلين، فإن في ذلك حياة القلب وسلامته، وقد أمر الله تعالى بهذه الصحبة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾[3].

- وأمر الله ﷻ نبيه أن يحبس نفسه على صحبة المؤمنين الصادقين، ونهاه عن طاعة من أغفل الله قلبه عن ذكره، فقال سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[4].

- وملازمة المؤمنين الصادقين وصحبتهم، تدعو إلى محبتهم وتمني الخير لهم، والدعاء لهم، وعدم حسدهم أو بغضهم أو معاداتهم بين الله ﷻ كل ذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[5].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعبه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد عن سعد بن مالك ﷺ.

(٣) سورة التوبة: ١١٩.

(٤) سورة الكهف: ٢٨.

(٥) سورة الحشر: ١٠.

سابعاً: البعد عن المعاصي والآثام والذنوب، والمغريات والشهوات والأهواء والمفسدات، فإنها تضعف الإيمان في القلب، وتكثر الحجب عليه، وتسوده، وتطفئ نوره، فيُختم ويُطبع، حتى يصل إلى الران الذي يميته والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[1].

- قال ابن عباس رضي الله عنهما: (إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن،، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمة في القلب، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق)[2].

- قال الإمام مالك لما رأى من الشافعي النبوغ والإيمان، قال له: (إني أرى الله تعالى قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية)[3].

- وهناك آية تلخص كل ما جاء في هذه الفقرة من معانٍ في قوله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[4].

- وفي الحديث الشريف يقول النبي ﷺ شارحاً هذا الموضوع: «إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب صقل منها، فإن عاد زادت حتى تعظم في قلبـــه، فذلك الران الذي ذكره الله ﷻ:

---

(١) سورة المطففين: ١٤.

(٢) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين جزء١، ص٤٢٤.

(٣) ابن قيم الجوزية: الجواب الكافي ص٥٢.

(٤) سورة الجاثية: ٢٣.

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[1]»[2].

- قال الإمام ابن المبارك[3]:

رأيت الذنوب تميت القلـــوب وقد يـــورث الـــذل إدمانهـــا

وترك الذنوب حياة القلـــوب وخـــير لنفـــسك عـــصيانها

- وهناك أسباب أخرى للختم على القلوب والطبع عليها بينها النبي ﷺ، منها إهمال أداء الفرائض.

- فقال ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ (أي عن تركها) أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ»[4].

- وقال ﷺ في حديث آخر: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا بِهَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ»[5].

- وبالقياس فإن إهمال أداء الصلوات الخمس، وباقي العبادات والقربات من قراءة للقرآن، وذكر الله ﷻ، وحضور مجالس العلم والعلماء، ومجالسة الصالحين والأتقياء يؤدي إلى الختم على القلب والطبع عليه والعياذ بالله تعالى.

- كذلك يجب الابتعاد عن مفسدات القلب وأسباب مرضه، وهي كثيرة أذكر منها تعداداً فقط: كثرة الخلطة للناس وخاصة الفاسدة، والتمني، والتعلق بغير الله ﷻ، والشبع الكثير، وكثرة النوم، وفضول النظر، وفضول الكلام.

---

(١) سورة المطففين: ١٤.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أبو نعيم: حلية الأولياء، جزء ٨، ص٢٧٩.

(٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة وعبد الله بن عمر ﷺ.

(٥) أخرجه أبو داود والنسائي عَنْ أَبِي الْجَعْدِ الضَّمْرِيِّ ﷺ.

ثامناً: إنكار الفتن والابتعاد عنها، وعدم المشاركة فيها، وهي كثيرة وتكون في كل زمان ومكان، ويعرفها كل إنسان، فيقف أمام مفترقين، فأيهما يختار؟

روى حذيفة بن اليمان ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُوداً فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا[1] فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا [2]كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا[3] لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»[4].

- فإذا انجرف الإنسان في الفتنة، وتدهورت أخلاقه، وغرته الدنيا بزخارفها، ونسي الآخرة وجحيمها، مات قلبه، بين ذلك النبي ﷺ بقوله: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ فِتَناً كَقِطَعِ الدُّخَانِ يَمُوتُ فِيهَا قَلْبُ الرَّجُلِ كَمَا يَمُوتُ بَدَنُهُ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِراً وَيُمْسِي مُؤْمِناً وَيُصْبِحُ كَافِراً يَبِيعُ أَقْوَامٌ خَلاَقَهُمْ وَدِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»[5].

- لذلك كان النبي ﷺ يتعوذ من فتنة الصدر أي القلب، كما يتعوذ من عذاب القبر، وأرذل العمر، فعَنْ عُمَرَ ﷺ: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْبُخْلِ وَالْجُبْنِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَأَرْذَلِ الْعُمُرِ وَفِتْنَةِ الصَّدْرِ)[6].

---

(١) الصفا: الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء.

(٢) مربادا: أي ممزوج بياضه بسواد.

(٣) كالكوز مجخيا: أي منكوساً.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٥) أخرجه أحمد عن أبي موسى ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده.

- قَالَ وَكِيعٌ: فِتْنَةُ الصَّدْرِ أَنْ يَمُوتَ الرَّجُلُ ولَمْ يَتُبْ مِنْهَا[1].

- **أخيراً**: مما مر معنا نجد أن أهم ما ينبغي لمن أراد سلوك طريق التصوف طريق الذكر والإحسان والنجاح أن يسعى لامتلاك القلب السليم والمحافظة عليه.

(١)أحمد في مسنده.

المطلب السادس

السعي لتحقيق المقامات والأحوال التي تُبَلِّغهُ الطريق وتدلُّه عليه

- (قسم الصوفيون طريقهم إلى مراحل أو منازل أو مقامات فالمسمى واحد وإن اختلفت التسميات، وقد عمدوا إلى هذه التسمية تشبيهاً له بالطريق المادي حيث يجتازه المسافر مرحلة بعد مرحلة، فإذا تخطى مرحلة نزل ليستريح ويريح راحلته، ويتزود ليستأنف الرحلة من جديد)[1].

- وقد اصطلح العلماء على تسميتها بالمقامات والأحوال وهو المشهور من أسمائها.

● **المقامات**: من الإقامة والثبات وعدم التغير أو التبدل، وقد عرف السراج الطوسي المقام بأنه: (مقام العبد بين يدي الله ﷻ فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله ﷻ)[2].

- قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾[3].

- وقال ﷻ: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾[4].

- والمقامات يكتسبها العبد بالتزام الشريعة، ومجاهدة النفس، ومواصلة التربية.

- قال محمد بن واسع[5] رحمه الله: (كابدت الليل عشرين سنة،

---

(١) د. عبد الفتاح بركة: التصوف والأخلاق ص ١٥٦.

(٢) اللُّمع ص٥٦.

(٣) سورة إبراهيم: ١٤.

(٤) سورة الصافات: ١٦٤.

(٥) محمد بن واسع: أبو بكر محمد بن واسع بن جابر الازدي، فقيه ورع، من الزهاد. من أهل البصرة. عرض عليه قضاؤها، فأبى. وهو من ثقات أهل الحديث توفي سنة (١٢٣ هـ/٧٤١م). [الأعلام للزركلي].

فتنعمت به عشرين سنة)[1].

- وقال مالك بن دينار[2] رحمه الله: (حفظت القرآن عشرين سنة ثم تنعمت بتلاوته عشرين سنة)[3].

- ومثالها في عصر النبوة ما اتصف به الصحابة الكرام من مقامات استقاموا عليها طيلة حياتهم كالإخلاص والصدق والصبر والتوكل والزهد وغير ذلك.

- فكان أحدهم يقول: (مَا كَذَبْتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ)[4].

● **الأحوال:** من التحول والتغير والتبدل وعدم الدوام.

- ومعنى الأحوال: هو ما يَحُلُّ بالقلوب، أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار، وهو معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتذاب ولا اكتساب، وكان عارضاً سريع الزوال.

- وقد حكي عن الجنيد رحمه الله أنه قال: (الحال نازلة تنـــزل بالقلوب فلا تدوم)[5].

- والحال يأتي من فضل الله ﷻ، وليس من طريق المجاهدات والعبادات، فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب.

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين جزء٦، ص٤٠٦.

(٢) مالك بن دينار: أبو يحيى مالك بن دينار البصري، من رواة الحديث. كان ورعا، توفي سنة (١٣١هـــ/٧٤٨م). [الأعلام للزركلي]

(٣) السراج الطوسي: اللُّمع ص ٦٦.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٥) السراج الطوسي، اللُّمع ص ٦٦.

- لذلك قال أهل التصوف: (الأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود)[1].

- من هذا القبيل ما حدث من حال مع الصحابي الجليل حنظلة ﷺ: فقد روى حَنْظَلَةُ الأُسَيِّدِيُّ وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ قَالَ قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَ اللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا ذَاكَ».

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ أَنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً». ثَلاَثَ مَرَّاتٍ[2].

- (ويذهب الإمام الغزالي في تعريفه للمقام والحال مذهب السراج الطوسي فالوصف إنما يسمى مقاماً إذا ثبت وأقام، وإنما يسمى حالاً إذا كان عارضاً سريع الزوال)[3].

---

(١) أبو العزائم جاد الكريم بكير: طلائع الصوفية ص٢٤.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين جزء ٤ ص ١٣٩.

– وبالرغم من تلك التعريفات إلا أن التداخل قائم بين المقام والحال، وقد عدَّ السهروردي الضابط المفرق بينهما اللفظ والعبارة إذ (أن اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق فالحال سُمي حالاً لتحوله والمقام مقاماً لثبوته واستقراره)[1].

– (ويرى أهل التصوف أن كل فضيلة لا تستغني مقاماً عن حال إذ أن الحال مقدمة المقام فلابد من أن يوجد فيها حال ومقام ففي الزهد حال ومقام وفي التوكل حال ومقام وفي الرضا حال ومقام إذاً فالشيء بعينه قد يكون حالاً ثم يصير مقاماً لأنه يتحول أما المقام فهو ثابت)[2].

– ولأهمية هذه المقامات والأحوال، ولقيام الطريق عليها كان لكل إمام من أئمة التصوف فيها مذهب.

– هذا وقد تحدث علماء التصوف عن مقامات وأحوال كثيرة وفصلوا فيها الحديث أتناول أهمها بالشرح المبسط في الباب التالي.

(١) عوارف المعارف ص ٤٢٣.

(٢) المرجع السابق ص ٤٢٥.